ظاهرة العنف في المجتمع اللبناني

مقاربة تحليلية أولية للمفاهيم التفسيرية

مقدمة

ظاهرة العنف وما تفرز من سلوك عدواني لدى الأفراد والجماعات باتت متفشية في الجسم الاجتماعي اللبناني وتقيم فيه كما يقيم المرض في جسم هشّ. عندما يُسأل الخبراء والأساتذة المتخصصين في العلوم الإنسانية عن أسباب هذا التفشي يذكرون ثلاثية الأسباب المعهودة: اجتماعية واقتصادية ونفسية وهي الأسباب التي تفعل فعلها مباشرة على المدى القصير والمتوسط. لكن، نعلم منذ أميل دركايم أن التركيبة الاجتماعية الأكثر احتضانًا للعنف هي تلك التي تتعرض لتحولات جذرية في البنى الأساسية، كالديمغرافيا وبنية العائلة والهوية والانتماء الديني وتصدع أنظمة القيم والمكانة الاجتماعية والاقتصادية. هذه المرحلة الصعبة في تاريخ المجتمعات، عندما ينتقل مجتمع ما من أسلوب معين للتنظيم الاجتماعي ونمط العسش والحياة إلى نمط آخر وأسلوب آخر مختلفين تماما عمّا كان معهودا، يسمّيها دركايم anomie أي مرحلة فقدان المرجعيات ومعايير السلوك. لا شك أننا نعيش الآن في لبنان في هذه المرحلة ال anomie وقد طال زمنها لأنها بدأت منذ عام ١٩٧٥ بالانتقال من السلم إلي الحرب ،من ثم بعد ١٩٩٠ بالانتقال من الحرب إلى سلم منقوص ومن ثم بعد ٢٠٠٦ إلى سلم أهلي بارد تتخلله مواجهات ساخنة.

إذن ما يزال لبنان اليوم منغمسًا في حالة ال " الأنوميا" اللتي تتمظهر في سلوكيات عدوانية تشمل كافة أنواع العنف وأشكاله.

نعتمد في هذه المقاربة أسلوب التحليل السوسيوغرافي لهذه الظاهرة في معانيها ومبانيها.

الخوف

أنا لا أتناول هنا الخوف المتأتي من العنف المكّوِن للبناء النفسي الغرائزي لدى الإنسان الذي أسماه "فرويد" ال thanatos " أي غريزة الموت، الذي يؤلف مع "غريزة الحياه" eros البنيه التحتية لمجمل السلوك البشري. أتناول هنا ما يمكن تسميته " الخوف المجتمعي" أو "الخوف في المجتمع" وفي هذه الحالة يصبح الخوف ظاهرة جماعية، عامة. هذا "الخوف المجتمعي" يأتي من مظاهر عدّة ومختلفة، أبرزها الحروب والنزاعات والاضطهادات وفي بعض الأمكنة "غضب الطبيعة" من زلازل وفياضنات وحرائق. في هذه الأحوال والمناطق يتسم الأشخاص والجماعات بنفسية عامة مبنية على الخوف.

في لبنان، أثناء الحرب كان العنف العسكري والأمني ظاهرًا، سافرًا وكان الخوف مهيمنا على المجتمع وعلى الناس العزّل. وبعد توقف الأعمال العسكرية في بداية التسعينات، استمرّ الخوف عندما اكتشف اللبنانيون التغيرات الكبيرة الحاصلة في البلد: تغيرات ديمغرافية وتحولات الانتشار الجغرافي والمكاني وتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. فقد شكلت هذه الأوضاع الفسحات "الطبيعية" لتكوين الشعور بالنبذ وبالتهميش. وهذا الشعور هو المولد الأساسي والحاضن الأولي للعنف ولممارسته.

على قاعدة تغلغل الخوف في الجسم الاجتماعي اللبناني، يسأل عالم الاجتماع ما هي الأنماط والظواهر المختلفة التي تسمح لنا بتصنيف متدرج للعنف الممارس اليوم في لبنان.

العنف في مظاهره وتجلياته:

- المصطلح وتحديده

يعاني المجتمع اللبناني المعاصر من فائض في استخدام مصطلح "عنف". تتراوح مروحة استخدامه بين الفعل الإجرامي اليومي الذي تروج له جميع وسائل التواصل الإعلامي وبين العمل الإرهابي الموصوف، مرورًا بأشكال العنف المنزلي المختلفة، والعنف الكلامي والتحرش. فيبدو أنه لا توجد فسحة ولا يوجد مشهد من مشاهد الحياة الاجتماعية العامة والخاصة بمنىء عن الوقوع في شباكه. كما يستخدم أيضًا لتوصيف جميع أشكال النزاعات الأهلية منها والعسكرية في كل أرجاء العالم.

يُكتب مصطلح " عنف" بصيغة المفرد ومضمونه متشعب متعدد المعاني*polysémique* يُوَصّف حالة بحسب علماء الاجتماع، وهو ليس مفهومًا تحليليا (لأنه كما أسلفنا يجمع كل الناس وغالبية السلوكيات) إنه حالة محسوسة تثير الإشمئزاز والإدانة أو تبسط أجواء من الخوف والقلق وعدم الاستقرار. العنف هو إيضًا وضعية قابلة للقياس وللعروض الكميّة. نقول مثلاً العنف في هذه المدينة أو في هذا البلد إزداد أو نقص أوتراجع. كما توضع تقارير تصنف وتنمط أشكال العنف التي حصلت خلال مدّة زمنية معينة في مكان معين.

- ظواهر العنف: بين صعوبة التحديد المجرد وضرورة البحث عن أنماط للعنف typologie

جزء من عمل الباحث الاجتماعي والسوسيولوجي تحديد مجموعة من الظواهر الاجتماعية الموصوفة بأنها "ظواهر عنفيّة" ومن ثم محاولة تفكيك آليات عملها وفهم السيرورات التي تطبع تطوراتها.

أنماط العنف في المجتمعات

أقدم في ما يلي نموذجاً أوليا لمثل هذا العمل من خلال الأبحاث التي جرت في لبنان وفي العالم.

العنف في العلاقات بين الأشخاص

La violence dans les relations interpersonnelles

يشمل هذا اعنوان كل من:

١/ العنف الأسري: عنف جسدي، جنسي، كلامي. المعاملة السيئة للأولاد و للأهل ولسائر المقيمين تحت سقف واحد.

٢/ العنف في العلاقات الاجتماعية: التهديد والتهويل، التحرش، الشتم، الابتزاز، الضرب والتدميم، الخ.

٣/ العنف في العلاقات بين الأجناس (الجندر) السيطرة الذكورية، النظام الأبوي، العمل النسوي.

العنف داخل الجماعات في المجتمع

يشمل هذا اعنوان كل من:

١/ الجنوح وجنوح الأحداث، تشكل عصابات شبابيّة في الأحياء، التعدّي على الأملاك، السرقة والسطو.

٢/ الإجرام وأشكاله المختلفة: العصابات، المافيات، الجريمة المنظمة، الخطف، الاغتيالات، الشبكات المحلية وتواصلها مع الشبكات العالميّة، إلخ.

٣/ العنف المدرسي الذي يطال التلاميذ من قبل أفراد الهيئة التعليمية وبين التلاميذ بعضهم بعضًا.

مثال تطبيقي: السيارة والعنف

ليست السيارة مجرد وسيلة نقل لدى الضعفاء والمنبوذين. من خلال معاينة الظواهر المختلفة لممارسة العنف الجسدي والإجرامي أحياناً في لبنان اليوم، نلاحظ تعدد الحلات العنفية والإجرامية على الطرقات محورها السيارة وأنماط قيادتها بصفتها وسيلة تخاطب عدواني مع مستخدمي السيارات الأخرى. المشهد المتكرر يتكون من ثلاثة فاعلين: الجاني والمجنى عليه والسيارة. نتساءل ما هي العلاقة الدفينة بين قيادة السيارة (وهي من نوع معين لها خصائص معينة) وما تستثيره من ممارسات عدوانية وعنفية لدى الذي يقودها.

حاولت رسم "البروفيل" الاجتماعي لهذا السائق الليلي إجمالاً الذي يمطط سيارته في ساعة متأخرة من الليل وينطلق "لافتعال مشكل" كما وأنه طاهب إلى الصيد.

هذا الإنسان ينفصم بالفعل إلى "شخصين": شخص في الحياة اليومية وشخص آخر في قيادة سيارة (استعارها؟، سرقها؟) ليلاً. في الحياة اليومية هو شحص غير مستقرّ، لا مكانة اجتماعية له، عاطل عن العمل، يمكن أن يكون في خانة الاستزلام لزعيم أو لحزب لكنه ينتمي إلى العناصر التي تتلقى الأوامر. يتلخص وضعه بكلمتين: مهمش و منبوذ.

ليلًا يتجول هذا الشخص في سيارته، فيتحول إلى "ملك"، إلى قائد داخل مملكته/السيارة هو الآمر الناهي. يقود كما يحلو له، "يشفط" يتحرش بسائر السيارات، يسمع الموسيقى بهدف إذعاج الآخرين. ما يهمه لفت الأنظار، "الناس تتطلع نحوه" ولا يهمّه إذا كانت هذه النظرات إعجابا أو اشمئزازًا، إنه هو وسيارته المشهد ... هذا المنبوذ نهارا أصبح ليلا مَلِكًا على كل شيء، متاح له كل شيء... حتى القتل.

العنف الاجتماعي- السياسي

يشمل هذا اعنوان كل من:

١/ التفاوت الاقتصادي الاجتماعي كمصدر مُحدِّد للعنف في المجتمع.

٢/ آليات النبذ الاجتماعي*marginalisation* والتهميش.

٣/ النبذ العرقي والاتني وأشكال الممارسات العنصرية.

٤/ نبذ الأقليات.

٥/ النزوح السكاني والمجازر بحق المدنيين وأشكال التطهير العرقي

٦/ النزاعات العسكرية، الحروب، النزاعات الأهلية والطائفية

٧/ الإرهاب الديني، العقائدي، (التكفير والتخوين) و الإتني-العرقي، وإرهاب الدول التوتاليتارية.

٨/ العنف في الإعلام خصوصا في الإعلام المرأي وفي مواقع التواصل الاجتماعي. دور الصورة والصوت في تعميم مشهدية العنف وإظهاره بصورة عالية الشأن. كذلك نلاحظ تفشي لغة العنف الحربي والعسكري في الكلام عن الأمور البسيطة واليومية: الموقف الحاد من قبل

أحد السياسيين يُعرض كونه "تفجير قنبلة من العيار الثقيل"، والتمسك بموقف مبدأي يصبح "متراسا"، والذي ينتقد مسؤولا "يطلق النار عليه"، الخ.

مثال تطبيقي: أربعة نماذج تفسيريّة للإرهاب الديني

١/ العقيدة: يُمارَس هذا الإرهاب باسم الأفكار والقيَم التي يؤمن بها الناشط والتي هي برأيه، تمثل الحقائق الثابتة، المطلقة، الأبدية؛ أو بالأحرى ما يعتبره الناشط أو الداعية المفاهيم الأوصولية الثابتة للعقيدة والتي، بشكل عام، لا تُحظى على إجماع القيّمين عليها.

٢/ الشبكات المؤطرة: الوزن الاجتماعي لشبكات التأطير و قدرتها على التجنيد من خلال أحدث التقنيات التواصلية واستخدامها وسائل الإقناع والتأثير الأكثر تطورًا.

٣/ نظرية الجنون الإجرامي إو الاإنتحاري.

٤/ نظرية الدور المُحدّد أساساً لنوعية النظام الاجتماعي ودرجة انتاجه للتهميش وللنبذ، مما يولد توجهات عبثية لدى الشباب.

هذا نموذج لكيفيّة تفسير (تفكيك) "العنف الإرهابي" من قبل مدارس سوسيولوجية مختلفة، علمًا أنه بالإمكان اعتماد تفسيرا يتقاطع مع الأربعة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما هو أساسي وما هو ثانوي برأي الباحث.

<u>خلاصة:</u>

في تقريرها السنوي حول حالات الإجرام وممارسات العنف في لبنان لعام ٢٠١٧، أحصت الأجهزة الرسمية ١٢٤ جريمة قتل تعود أسبابها (وفق تصنيف الأجهزة نفسها) إلى:

- إشكال فردي
- عنف أسري
- أفضلية مرور (السير على الطرقات)
- القتل بدافع السرقة

ويضيف التقرير أن غالبية الجرائم كانت "عائلية".

هذه الخلاصة تعيدنا إلى مرحلة " فقدان المعايير والمراجع" التي بدأنا الكلام حولها في نظرية دركايم. كما كانت ظاهرة "الانتحار" هي الظاهرة الأكثر تعبيرًا في عهد عالم الاجتماع الفرنسي عن "الأنوميا"، ها نحن نلاحظ تفشي ظاهرة القتل في مجتمعنا في إطار العائلة وبدون مبررات مقبولة مجتمعياً أو بدون مبررات على الإطلاق!! (مجرد اختلاف بوجهات النظر أو تباين حول موضوع معين يؤدي إلى عنف وقتل). كما يتبين بشكل مزهل أن الإطار الاجتماعي الرئيسي لهذه الممارسات الإجرامية في لبنان اليوم هو العائلة/الأسرة.

هذه البنية الاجتماعية التي ما تزال محورية في النظام الاجتماعي اللبناني، ليست بخير وتتعرض للتفسخ و التفكك و تيدو أنها المكان الذي تتمظهر فيه كافة أشكال العنف في لبنان اليوم. هذا وعلى الرغم من إدراكنا صعوبة العمل الميداني في هذا المجال المغلق والذي تسهر على سرّيته المحاكم الروحية، لا بد من متابعة شؤون العائلة في لبنان على أساس متغيّر التفكك وتوجهات إعادة التركيب وهذه مهمة بالغة الأهمية لعلماء الاجتماع اليوم ولمستقبل البناء الاجتماعي اللبناني.